

شهادات أئمة المذاهب الأربعة للتصوف وعلاقة الفقه بالتصوف

إعداد

د. محمد رفاعي محمود أحمد النشار

المستخلص:

يتناول هذا البحث شهادات فقهاء المذاهب الأربعة للتصوف، ويبين طبيعة العلاقة بين الفقه والتصوف، وهل هذه العلاقة كانت ضدية أم تكاملية؟، واعتمد البحث على آليات كل من المنهج الاستقرائي، والمنهج التحليلي، وتوصل إلى مجموعة من النتائج كان من أهمها أن السادة الفقهاء كان يحرصون على سلوك الطريق الصوفي، كما أن العلاقة بين الفقه والتصوف علاقة تكاملية، فلا بد من التشريع قبل التحقق؛ ومن ثم فالتصوف والفقه علمان متكاملان، والمراد بذلك: أن يشمل علم الفقه ما له علاقة بالأحكام، وما له علاقة بطريق العمل والتحقق، وأن يشمل علم الصوفي ما يلزمه من الأحكام التي يحتاج إليها، وأن يرافق ذلك كله عمل صحيح على ضوء العلم الصحيح.

الكلمات المفتاحية: الفقه _ التصوف - المذاهب الأربعة.

Abstract:

This research deals with the testimonies of the jurists of the four schools of Sufism, and shows the nature of the relationship between jurisprudence and Sufism, and whether this relationship was antagonistic or complementary? To follow the Sufi path, just as the relationship between jurisprudence and Sufism is a complementary one, so it must be legislated before verification.

Keywords: the relationship of jurisprudence with Sufism - testimonies of the four schools of thought.

المبحث الأول

شهادات أئمة المذاهب الأربعة للتصوف

المطلب الأول

التصريح بأخذ الطريقة عن أبي حنيفة

توطئة:

لقد شهد الفقهاء شهادات غالية لعلم التصوف، بل وتحققوا به، وعرفوا به، ومن هذه الشهادات: نقل الفقيه الحنفي الحصكفي - رحمه الله تعالى - صاحب الدر، ما نصه: "وَقَدْ قَالَ الْأُسْتَاذُ أَبُو الْقَاسِمِ الْفُشَيْرِيُّ فِي رِسَالَتِهِ مَعَ صَلَابَتِهِ فِي مَذْهَبِهِ وَتَقَدُّمِهِ فِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ: سَمِعْتُ الْأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَاقَ يَقُولُ: أَنَا أَخَذْتُ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ مِنْ أَبِي الْقَاسِمِ النَّصْرَابَادِيِّ. وَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ: أَنَا أَخَذْتُهَا مِنَ الشَّبَلِيِّ، وَهُوَ أَخَذَهَا مِنَ السَّرِيِّ السَّقَطِيِّ، وَهُوَ مِنْ مَعْرُوفِ الْكَرْخِيِّ، وَهُوَ مِنْ دَاوُدِ الطَّائِيِّ. وَهُوَ أَخَذَ الْعِلْمَ وَالطَّرِيقَةَ مِنْ أَبِي حَنِيفَةَ، وَكُلُّ مِنْهُمْ أَتَى عَلَيَّ وَأَقْرَبَ بِفَضْلِهِ".

ثم قال صاحب الدر معلقاً: "فَعَجَبًا لَكَ يَا أَخِي: أَلَمْ يَكُنْ لَكَ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي هَؤُلَاءِ السَّادَاتِ الْكِبَارِ؟ أَكَانُوا مُتَّهَمِينَ فِي هَذَا الْإِفْرَارِ وَالْإِفْتِحَارِ، وَهُمْ أئِمَّةُ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ، وَأَرْبَابُ الشَّرِيعَةِ وَالْحَقِيقَةِ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ فِي هَذَا الْأَمْرِ فَلَهُمْ تَبِعٌ، وَكُلُّ مَا خَالَفَ مَا اعْتَمَدُوهُ مَرْدُودٌ مُبْتَدَعٌ".

يقول ابن عابدين - رحمه الله تعالى - في حاشيته عن أبي حنيفة - رحمه الله تعالى -؛ تعليقاً على كلام صاحب الدر الآنف الذكر: "هُوَ فَارِسٌ هَذَا الْمَيْدَانِ، فَإِنَّ مَبْنَى عِلْمِ الْحَقِيقَةِ عَلَى الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ وَتَصَوُّفِ النَّفْسِ، وَقَدْ وَصَفَهُ بِذَلِكَ عَامَّةُ السَّلَفِ، فَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ - رحمه الله تعالى - فِي حَقِّهِ: "إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْعِلْمِ وَالْوَرَعِ وَالزُّهْدِ وَإِبْتِئَارِ الْأَخْرَةِ بِمَحَلِّ لَا يُدْرِكُهُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ ضُرِبَ بِالسِّيَاطِ لَيْلِيَ الْقَضَاءِ، فَلَمْ يَفْعَلْ". وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ - رحمه الله تعالى -: "لَيْسَ أَحَدٌ أَحَقُّ مِنْ أَنْ يُفْتَدَى بِهِ مِنْ أَبِي حَنِيفَةَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ إِمَامًا نَقِيًّا نَفِيًّا وَرِعًا عَالِمًا فَفِيهَا، كَشَفَ الْعِلْمَ كَشْفًا لَمْ يَكْشِفْهُ أَحَدٌ بِبَصَرٍ وَفَهْمٍ وَفِطْنَةٍ وَتَقَى". وَقَالَ الثَّوْرِيُّ - رحمه الله تعالى - لِمَنْ

قَالَ لَهُ جِئْتُ مِنْ عِنْدِ أَبِي حَنِيْفَةَ: "لَقَدْ جِئْتُ مِنْ عِنْدِ أَهْلِ الْأَرْضِ"، وَأَمْتَالُ ذَلِكَ مِمَّا تَقَلَّهُ: ابْنُ حَجْرٍ وَعَظِيْرُهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ"^(١).

المطلب الثاني

شهادة الإمام مالك بن أنس للتصوف

يقول الإمام مالك فيما أورده كبار فقهاء مذهبه: "من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق"^(٢).

ومن المناسب هنا أن نوردها في السياق الذي وضعها فيه الشيخ زروق؛ ليتضح معناها، فقد جاء في القاعدة الرابعة: "صدق التوجه مشروط بكونه من حيث يرضاه الحق - تعالى - وبما يرضاه، ولا يصح مشروط بدون شرطه "ولا يرضى لعباده الكفر" [الزمر: ٧] ، فلزم تحقيق الإيمان "وإن تشكروا يرضه لكم" [الزمر: ٧]، فلزم العمل بالإسلام. فلا تصوف إلا بفقه؛ إذ لا تعرف أحكام الله الظاهرة إلا منه، ولا فقه إلا بتصوف؛ إذ لا عمل إلا بصدق وتوجه، ولا هما إلا بإيمان، إذ لا يصح واحد منهما بدون الآخر، فلزم الجميع؛ لتلازمها في الحكم، كتلازم الأرواح للأجساد، إذ لا وجود لها إلا فيها، كما لا كمال له إلا بها، فافهم. ومنه قول الإمام مالك الأنف الذكر، فقال الشيخ زروق - رحمه الله تعالى - "قلت: تزندق الأول؛ لأنه قائل بالجبر الموجب لنفي الحكمة والأحكام، وتفسق الثاني؛ لخلو عمله عن صدق التوجه الحاجز عن معصية الله - تعالى -، وعن الإخلاص المشترط في العمل لله. وتحقق الثالث؛ لقيامه بالحقيقة في عين التمسك بالحق، فاعرف ذلك وافهم!"^(٣).

وللنظر كيف اعتبر الإمام مالك - رضي الله عنه - الفقه والتصوف جزأين متلازمين لا يتم أحدهما إلا بالآخر.

^١ - ينظر: حاشية رد المحتار على الدر المختار، ابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي (ت: ١٢٥٢هـ)، (ج١/ص٦١)، ط٢، دار الفكر - بيروت، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

^٢ - حاشية العدوي على شرح العزبة للزرقاني، الشيخ علي بن أحمد العدوي الصعيدي (ت: ١١٨٩هـ)، (ج٣/ص١٩٥)، ط. بولاق - القاهرة، ١٢٩٨هـ.

^٣ - قواعد التصوف وشواهد التعرف للشيخ زروق، قاعدة رقم (٤)، ص ٢٤.

المطلب الثالث

شهادة الإمام الشافعي للتصوف

قال الإمام الشافعي - رضي الله عنه - : "حُبب إليَّ من دنياكم ثلاث: ترك التكلف، وعشرة الخلق بالتلطف، والافتداء بطريق أهل التصوف"^(١).

قال الإمام الشافعي - رضي الله عنه - : "صَحِبْتُ الصُّوفِيَّةَ فَلَمْ أَسْتَفِدْ مِنْهُمُ سِوَى حَرْفَيْنِ: أَحَدُهُمَا قَوْلُهُمْ: الْوَقْتُ سَيْفٌ، فَإِنْ قَطَعْتَهُ وَإِلَّا قَطَعَكَ. وقولهم: وَنَفْسُكَ إِنْ لَمْ تَشْغَلْهَا بِالْحَقِّ شَغَلَتْكَ بِالْبَاطِلِ. وقولهم: العدم عصمة".

وقد يستشكل هذا الكلام على البعض! فيقول: هل فقط استفاد الإمام الشافعي - رضي الله عنه - من الصوفية حرفين؟؟ ويجب عن هذا الإشكال ابن القيم - رحمه الله - بقوله: "يا لها من كلمتين، ما أنفعهما وأجمعهما، وأدلهما على علو همة قائلها، ويقظته، ويكفي في هذا ثناء الشافعي على طائفة هذا قدر كلامهم"^(٢).

المطلب الرابع

شهادة الإمام أحمد بن حنبل للتصوف

مما لا شك فيه أن الإمام أحمد بن حنبل اجتمعت في شخصيته أصول التصوف الصحيح؛ لذلك نجد ترجمة الإمام أحمد بن حنبل مذكورة في معظم كتب تراجم السادة الصوفية، وهو ممن تكلم بعلوم الصوفية، كما صرح بذلك ابن تيمية - رحمه الله -، فقال: "وقد

^١ - كشف الخفاء ومزيل الإلباس، إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي الجراحي العجلوني الدمشقي، أبو الفداء (ت: ١١٦٢هـ)، (ج١/ص ٣٤١)، تحقيق: عبد الحميد بن أحمد بن يوسف بن هندوي، ط١، المكتبة العصرية، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

^٢ - الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، (ج١/ص ١٥٦)، دار المعرفة - المغرب، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

نُقلَ التكلم به من غير واحدٍ من الأئمة والشيوخ، كالإمام أحمد بن حنبل، وأبي سليمان الداراني، وغيرهما^(١).

وقيل عن الإمام أحمد بن حنبل - رضي الله عنه - : "وكانت هذه الطبقة بجملتها من الفريقين تتبرك به"^(٢).

وَنَقَلَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَلَانِسِيُّ أَنَّ الْإِمَامَ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ عَنْ الصُّوفِيَّةِ: "لَا أَعْلَمُ أَقْوَامًا أَفْضَلَ مِنْهُمْ، قِيلَ: إِنَّهُمْ يَسْتَمِعُونَ وَيَتَوَاجِدُونَ، قَالَ: دَعَوْهُمْ يَفْرَحُونَ مَعَ اللَّهِ سَاعَةً، قِيلَ: فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُوتُ وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْشَى عَلَيْهِ، قَالَ - تَعَالَى - : "وَيَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ" [الزمر: ٤٧] ^(٣). والوجد: ما يصادف القلب ويرد عليه بلا تكلف وتصنع، أو هو مصادفة الباطن من الله - تعالى - واردة يورث فيه حزنًا أو سرورًا، أو يغيره عن هيئته، ويغيبه عن أوصافه بشهود الحق^(٤).

قال الإمام الشعراني - رحمه الله تعالى - : "الصوفي فقيه؛ وقد كان الإمام أحمد بن حنبل مع جلالة قدره إذا توقف في مسألة يقول لأبي حمزة البغدادي: "ما تقول في هذه المسألة يا صوفي؟ فمهما قال له اعتمده"^(٥)، وكفى بذلك منقبةً لمشايخ الصوفية، وقد كان الإمام أحمد

١- رسالة الصوفية والفقراء، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النُمَيْرِيُّ الحَرَانِيُّ ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ)، ص ١٣، دار المدني - جدة.

٢- كشف المحجوب، أبو الحسن علي بن عثمان الهجويري (ت: ٤٩٢هـ)، ص ١٤٤، دار التراث العربي - القاهرة، ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م.

٣- كتاب الفروع، محمد بن مفلح، أبو عبد الله، شمس الدين المقدسي الراميني ثم الصالحي الحنبلي (ت: ٧٦٣هـ)، (ج ٨/ص ٣٧٨)، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط ١، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٤- ينظر: معجم مصطلحات الصوفية، د. عبد المنعم الحفني، ص ٢٦٤، ط ١، دار المسيرة - بيروت، ١٤٠١هـ - ١٩٨٠هـ.

٥- الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، الإمام عبد الوهاب بن أحمد الشعراني (ت: ٩٧٣هـ)، ص ٦٣، مكتبة المعارف - بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

- بعد أن صحب أبا حمزة البغدادي - يوصي ولده عبد الله، فيقول: "يا ولدي عليك بمجالسة هؤلاء القوم، فإنهم زادوا علينا بكثره العلم والمراقبة والخشية والزهد وعلو الهمة"^(١).

المبحث الثاني

علاقة الفقه بالتصوف

توطئة:

رأينا فيما سبق ذكره تأكيد أهل العلم على التلازم والتكامل بين الفقه والتصوف، ويؤكد على ذلك أيضًا الإمام الشافعي - رضي الله عنه -، فقال:

فَقِيهَا وَصُوفِيًّا فَكُنْ لَيْسَ وَاحِدًا فَإِنِّي وَحَقَّ اللهُ إِيَّاكَ أَنْصَحُ

فَذَلِكَ قَاسٍ لَمْ يَدُقْ قَلْبُهُ تَقَى وَهَذَا جَهْلٌ كَيْفَ ذُو الْجَهْلِ يَصْنَعُ؟^(٢)

ومن ثم؛ فالتصوف والفقه علمان متكاملان، والمراد بذلك: أن يشمل علم الفقه ما له علاقة بالأحكام، وما له علاقة بطريق العمل والتحقيق، وأن يشمل علم الصوفي ما يلزمه من الأحكام التي يحتاج إليها، وأن يرافق ذلك كله عمل صحيح على ضوء العلم الصحيح^(٣).

ولإمام أحمد الرفاعي - رضي الله عنه - عبارات رائقة في هذا المعنى جاءت موضحةً بالمثال، فقال: "إذا انفرد قلبك بحسن نيته وطهارة طويته، وقتلت وسرقت وزنيت.....، فما الفائدة من نيتك وطهارة قلبك؟ وإذا عبدت الله - تعالى - وتعففت وصمت وتصدقت، وأبطن قلبك الرياء والفساد، فما الفائدة من عملك؟ فإذا تعين لك أن الباطن لب الظاهر، والظاهر ظرف الباطن، ولا فرق بينهما، ولا غنى لكليهما عن الآخر، فقل: نحن من أهل الظاهر، وكأنك قلت: ومن أهل الباطن"^(٤).

^١ - غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي (ت: ١١٨٨هـ)، (ج١/ص٣٢٥)، مؤسسة قرطبة - مصر، ط٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

^٢ - ديوان الإمام الشافعي، ص٣١، ط. دار المنار - القاهرة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

^٣ - تكوين الملكة الفقهية، د. محمد عثمان شبير، ص١٦٣.

^٤ - البرهان المؤيد، الإمام أحمد الرفاعي (ت: ٥٧٨هـ)، ص٦٨.

وقال صاحب شجرة النور الزكية في طبقات المالكية في ترجمة أبي يحيى - أبو بكر بن القاسم بن جماعة الهواري -:"الفقيه الإمام العمدة العالم الفضال القدوة. أخذ عن أئمة من أهل المشرق والمغرب منهم: ابن دقيق العيد، وأخذ عنه ابن عبد السلام وغيره. ألف في البيوع تأليفاً يتعين على كل متدين في معاملاته الوقوف عليه؛ والسبب في تأليفه أنه طلب منه أن يؤلف في التصوف فأنعى به وشرع في تأليف بيوعه، وقيل له: في ذلك، فقال: هذا هو التصوف؛ لأن مدار التصوف على أكل الحلال، ومن لا يعرف أحكام المعاملات لا يسلم من أكل الحرام بالربا والبيوع الفاسدة، فألفه؛ للتوصل لأكل الحلال ومن أكل الحلال فعل الحلال"^(١).

وبناءً على ذلك: اتضح لنا ثمة علاقة تكامل بين الفقه والتصوف، وقد أكد على ذلك فحول المدرستين، ومن ذلك ما قاله الشيخ زروق - رحمه الله -:"حكم الفقه عام في العموم؛ لأن مقصده إقامة رسم الدين، ورفع مناره، وإظهار كلمته، وحكم التصوف خاص في الخصوص؛ لأنه معاملة بين العبد وربه من غير زائدٍ على ذلك، فمن ثم صح إنكار الفقيه على الصوفي ولا يصح إنكار الصوفي على الفقيه، ولزم الرجوع من التصوف إلى الفقه، والاكتفاء به دونه، ولم يكف التصوف عن الفقه، بل لا يصح دونه، ولا يجوز الرجوع منه إليه إلا به، وإن كان أعلى منه مرتبةً فهو أسلم وأعم منه مصلحةً.

ولذلك قيل: كن فقيهاً صوفياً ولا تكن صوفياً فقيهاً، وصوفي الفقهاء أكمل من فقيه الصوفية وأسلم؛ لأن صوفي الفقهاء قد تحقق بالتصوف حالاً وعملاً وذوقاً، بخلاف فقيه الصوفية، فإنه المتمكن من علمه وحاله، ولا يتم له ذلك إلا بفقه صحيح وذوق صريح، ولا يصح له أحدهما دون الآخر، كالتب الذي لا يكفي علمه عن التجربة ولا العكس^(٢).

ولذلك نقول: تشرع قبل أن تتحقق.

^١ - ينظر: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن محمد بن عمر بن علي ابن سالم مخلوف (ت: ١٣٦٠هـ)، (ج١/ص٢٩٥)، علق عليه: عبد المجيد خيالي، ط١، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

^٢ - ينظر: قواعد التصوف وشواهد التعرف للشيخ زروق، قاعدة (٢٦)، ص ٢٢.

خاتمة:

تشتمل الخاتمة على أبرز نتائج البحث، وتوصياته:

أولاً: النتائج:

- ١- بينتُ في البحث شهادات الفقهاء للتصوف.
- ٢- بينتُ في البحث أن السادة الفقهاء كان يحرصون على سلوك الطريق الصوفي.
- ٣- أكدتُ في البحث على أن العلاقة بين الفقه والتصوف علاقة تكامل، فلا بد من التشريع قبل التحقق.

ثانياً: التوصيات:

- ١- ينبغي بذل جهود علمية مستمرة في كتب التراجم، فهي حافلة بمسائل في شتى فروع العلوم.
- ٢- الاعتناء بالدراسات البيئية بين العلوم الإسلامية المختلفة؛ لتبرز جانب التكامل بين العلوم والمعارف الإسلامية.